قافلة الزيت

شعبان ١٣٩٩هـ - يونيو/ يوليو ١٩٧٩م

ميناء «سكياكا» لصيد الأسماك لا يزال
كما كان إبان الحكم العربي لجزيرة صقلية .

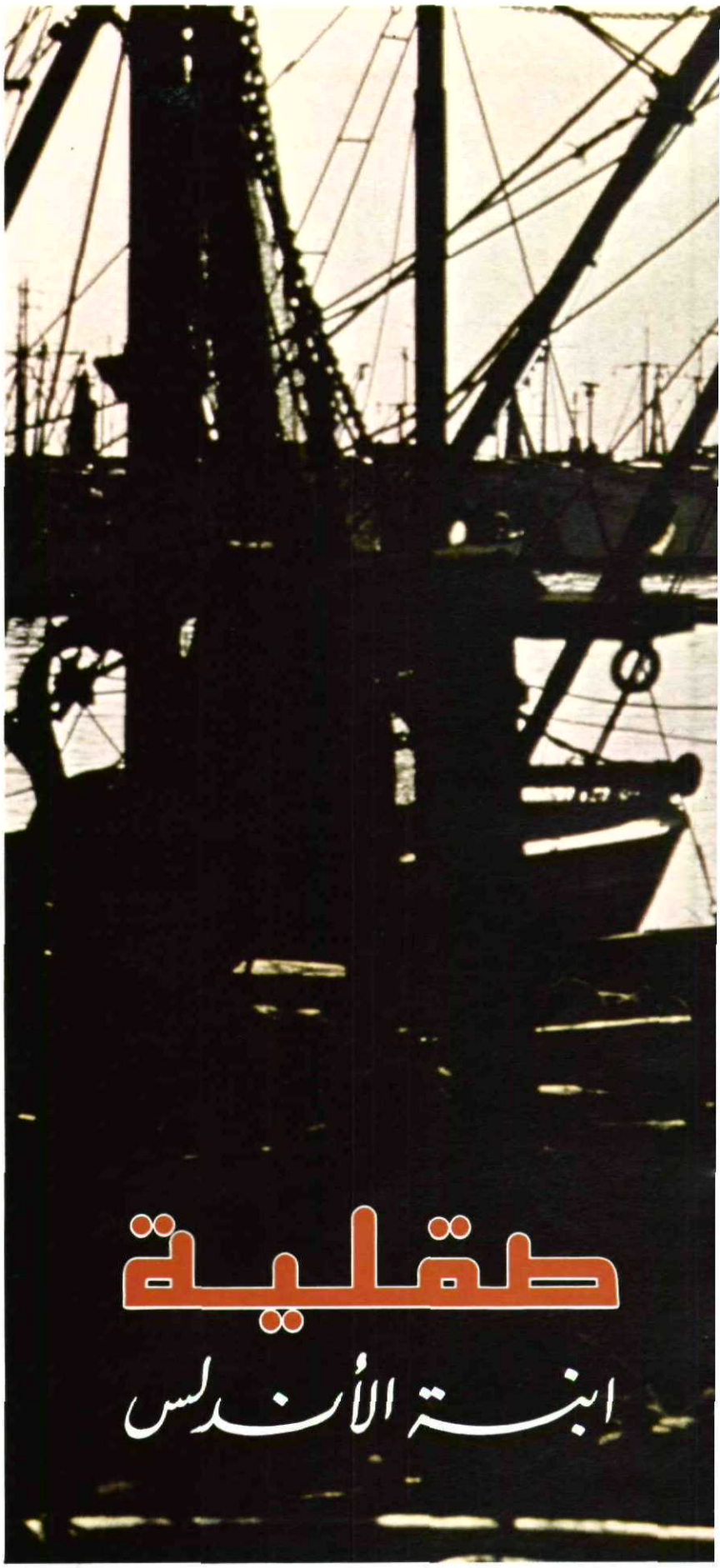

صقلية
ابنة الأندلس

صقلية تلك الجزيرة الخضراء ، الواقعة في مركز القلب من البحر الأبيض المتوسط ، مرت عبر تاريخها العريق بفترات حضارية متفاوته في تاثيرها في المحيط الانساني . بيد أن الفترة الاسلامية في تاريخ الجزيرة احتلت مركزاً مميزاً ، واعتبرت من أزهى الفترات التي مرت بها ، حيث بلغت العصور الوسطى أوج ازدهارها ، وتقدمها الاقتصادي والعمراني والعلمي ، حتى لقد عدّت العاصمة «بلرمو» في طليعة المراكز العلمية الاسلامية ، شأنها في ذلك شأن بغداد ، ودمشق ، والقيروان ، والقاهرة ، والمدينة المنورة ، وقرطبة ، واشبيلية ، وغيرها . فكانت صقلية موئلا لنخبة من مشاهير العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والصنّاع والحرفيين ، الذين كانوا ينتسبون اليها وإلى مدنها كالصقلي والبلرمي والسمنطاري والجرجنتي ، والسرقوسي ، والمسيني . فانتعشت الحركة الفكرية والعمرانية والزراعيّة في الجزيرة ، ممّا جعلها كوكباً ساطعاً في ظلام العصور الوسطى الذي خيم على أوروبا ، وكانت كالاندلس سبباً مباشراً في ايقاظ أوروبا من سباتها الطويل .

تحتل جزيرة صقلية موقعاً جغرافياً مرموقاً في قلب البحر الأبيض المتوسط ، مما جعلها منذ أزمان موغلة في القدم هدفاً مستمراً للغزو من جميع الجهات ، للسيطرة على ملاحة البحر المتوسط ، الذي يربط قارات العالم القديم ، والذي قامت على شواطئه أعرق الحضارات وأزهاها . فلا غرو إذن ، والحالة هذه ، أن يكون هذا الموقع الجغرافي الفريد قد شارك في تدوين تاريخ الجزيرة وتلوينه ، فعلى سواحلها كانت تلتقي أمواج الغزاة . وعليه فإن تاريخها من هذه الناحية هو تاريخ الشعوب ذات الحضارات المتألقة في حوض البحر المتوسط ، فهو جزء من تاريخ اليونان ، والفينيقيين ، والرومان ، والقوط ، والبيزنطيين ، والعرب .

وهذه الجزيرة الإيطالية الخضراء يفصلها مضيق « مسينا » عن البر الإيطالي ، حيث لا يتجاوز عرضه بضعة كيلومترات ، وهي مثلثة الشكل تقريباً ، وتبلغ مساحتها ٩٩٢٧ ميلاً مربعاً ، وبذلك تكون أكبر جزر البحر المتوسط . وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٧١ نحو خمسة ملايين نسمة .

وتمتاز صقلية بطبيعة خلابة ، وأرض خصبة معطاء حتى لقد أطلق عليها اسم « أهراء روما » ، فعلى قمحها كانت تعيش عاصمة الأمبراطورية الرومانية . ولعل بعض المظاهر الطبيعية في الجزيرة قد تغيرت منذ ذلك العهد السحيق ، وربما اختفت منها أنواع من المزروعات ، وقلت غابات البلوط والقسطل والجوز ، واندثرت مدن وقلاع كثيرة جنى عليها تتابع الهجرات وتغير الحكام . بيد أن خصب الجزيرة لا يزال ينعكس على القمح الذي كانت تعيش عليه روما ، والكرمة والزيتون اللذين جلبهما إليها اليونان ، والليمون والبرتقال واللوز والتين والنخيل وأنواع الزهور ولا سيما البنفسج التي جلبها العرب إليها . ولا تزال ربوع الجزيرة الغنية بالجداول والعيون والفوارات التي أوحت لثيوقريطس أغاني الرعاة ، مسرحاً للأغنام السائمة في السهول المترامية والربى الخضر . أما جبل « إتنا — Etna » الشامخ على كل ما حوله في الجزيرة فإنه ، على حد وصف الدكتور « إحسان عباس » الذي أفرد لصقلية كتاباً(١) قيماً ، يهدد منذراً بالويل ، وقد تلفع بعمامته الثلجية ، وتضرّم جوفه بالنار ، فإذا به ذلك السيد الرحيم القاسي في آن ، وإذا ثارت حممه غطى الأرض بطبقة خصبة وأفزع الآمنين . هذه الطبيعة الفاتنة لخصها الإدريسي ، الجغرافي المشهور ، في كتابه « نزهة المشتاق » بقوله : « والمياه بجميع جهات صقلية مخترقة ، وعيونها جارية متدفقة ، وفواكهها كثيرة ، ومبانيها ومتنزهاتها حسنة تعجز الواصفين ، وتبهر عقول العارفين ، وهي بالجملة فتنة للناظرين » . أما « ابن جبير » الذي زار صقلية عام ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) في طريق عودته من الحج إلى الأندلس ، فقد قدّم في كتاب رحلته الذائع الصيت الذي ترجم إلى كثير من اللغات الحية ، وصفاً دقيقاً لصقلية والحياة فيها ، حين نعتها باسم « إبنة الأندلس » . فقد ألقت بمركبه المقادير إلى ساحل « مسينا » بعد أن ذاق من أهوال البحر ومخاطره ألواناً ، ولا سيما في مضيق مسينا ، حين حطمت الأمواج العاتية المركب ، وتم إنقاذهم على يد الملك « غليالم » النورماني ، ملك صقلية ، الذي اتفق وجوده في مدينة « مسينا » حينذاك . ويصف لنا ابن جبير الجزيرة قائلاً : « طول هذه الجزيرة صقلية ، سبعة أيام وعرضها مسيرة خمسة أيام ، وبها جبل البركان المذكور ، وهو يأتزر بالسحب ، لافراط سموه ، ويعتم بالثلج شتاء وصيفاً دائماً . وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف ، وكفى بأنها ابنة الأندلس ، في سعة العمارة ، وكثرة الخصب والرفاهة ، مشحونة بالأرزاق على اختلافها ، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها » .

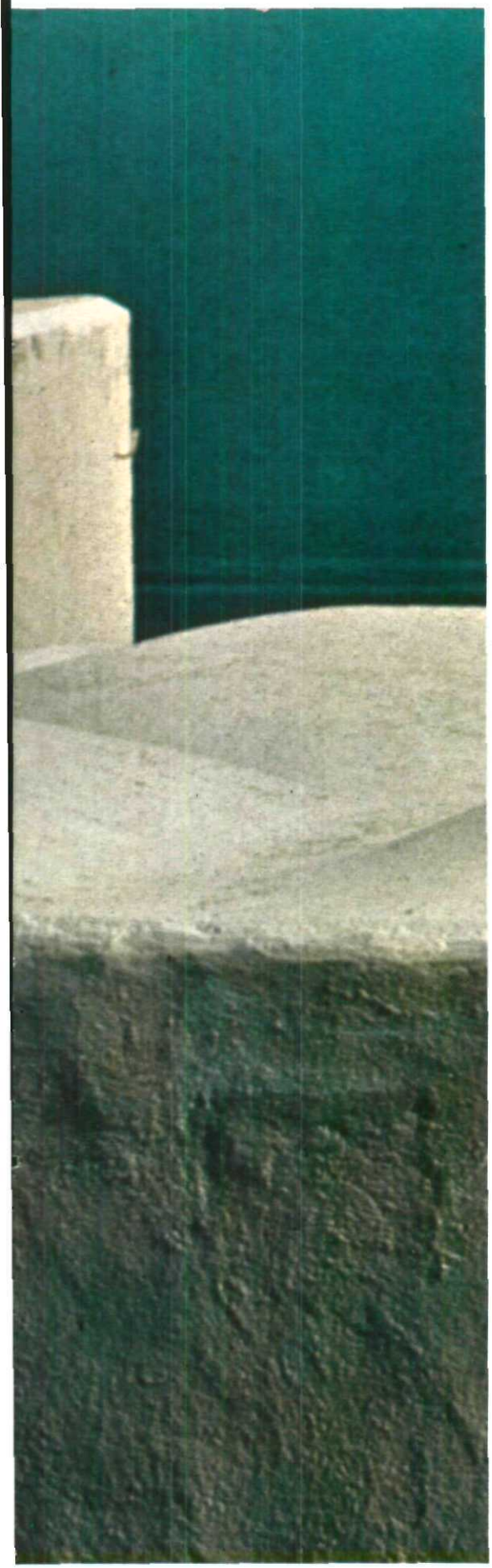

فن العمارة الاسلامية في صقلية يعكسه هذا البنـــاء ذو القبـــاب المحدبة .

لوحة من الفسيفساء بيزنطية مستوحاة من فن الزخرفة الاسلامية ، في مبنى « كابيلا بلاتينا ».

خطوط فن العمارة العربي تبدو واضحة في حمامات « كفالا ديانا » وقد زارها الرحالة العربي المشهور ابن جبير .

١

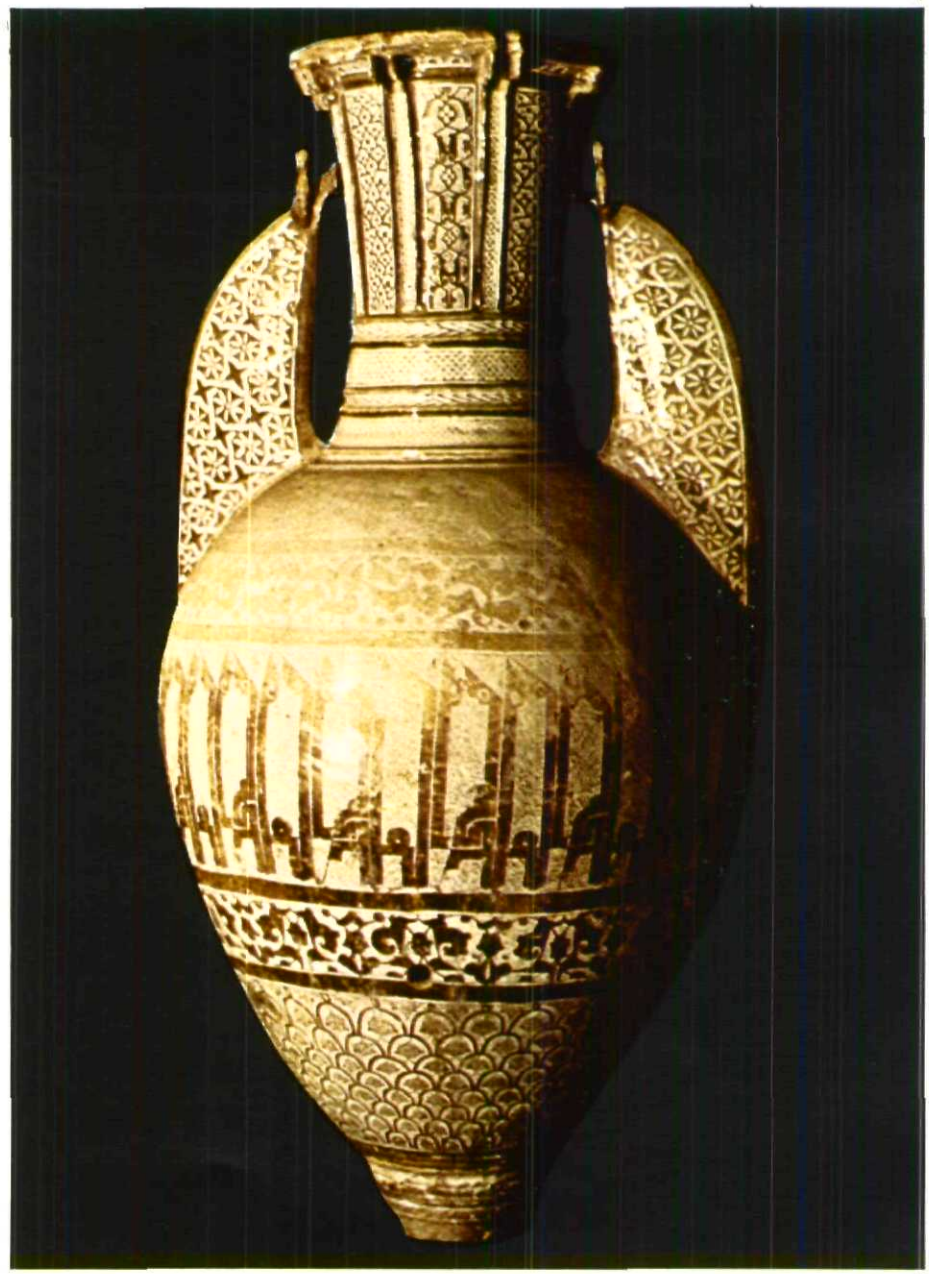

٢

لـ جزيرة بهذه المزايا الجغرافية قمينة بأن تكون مهداً للحضارات منذ فجر التاريخ ، ومحط الأنظار لأقوام متعددة . فالحفريات الأثرية التي أجريت في الجزيرة تؤكد استيطان الإنسان لها منذ أواخر العصر الجليدي الأول . أما التاريخ المدون فيشير إلى أن أقدم الأقوام التي قطنت الجزيرة هي قبائل « الصّقل » في الشرق وقبائل « السيكان » في الغرب ، ومن هنا جاء إسم الجزيرة . وكانت لهذه الأقوام علاقات تجارية مع اليونان والرومان تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وقد أشار الشاعر الملحمي اليوناني « هوميروس — Homer » الذي عاش في القرن التاسع قبل الميلاد إلى تلك العلاقات في قصيدته الملحمية « الأوديسّا — Odyssey » . وفي مطلع القرن الثامن قبل الميلاد اتجهت أنظار الأغارقة إليها لمد نشاطهم التجاري والزراعي ، فبسطوا نفوذهم عليها ، واتخذوا من « سيراقوسه » عاصمة لها ، وأسسوا فيها المدن التجارية الزاهرة ، الأمر الذي أثار مخاوف الفنيقيين ، فجندوا حملة على الجزيرة من قاعدتهم قرطاجة ، تونس اليوم ، وغزوا صقلية في القرن الخامس قبل الميلاد وأسسوا مدينة « بالرمو » التي أطلقوا عليها اسم « زيز » ، وهي قريبة من الكلمة العربية « عزيز » أي الجميلة . ثم جاء دور الرومان الذين استولوا على الجزيرة بعد حروب طاحنة مع الفنيقيين واليونانيين وأصبحت صقلية « أهراء روما » ، يسافر منها كل عام أسطولان محملان بالقمح ، مرة في الربيع وأخرى في الخريف . ولعل من الطريف أن نذكر أن العالم المشهور « أرخميدس » قام بتجميع أشعة الشمس في محاولة منه لإنقاذ مسقط رأسه « سرقوسه » ليحرق الأسطول الروماني الذي هاجمها عام ٢١٢ ق . م . وقد استعمل لذلك صفائح معدنية تكثف أشعة الشمس وتعكسها نحو أشرعة السفن المهاجمة فتشب

فيها النار . ثم لم يلبث أن وفد إليها القوط عام ٣١٨ م بعد انقسام الامبراطورية الرومانية فمكثوا فيها نحو قرنين ، تعرضت الجزيرة خلالهما للدمار والخراب ، الأمر الذي جعل سكانها ينتظرون الخلاص على يد أي فاتح جديد ، ولم يطل بهم الإنتظار حتى اجتاحها « بلزاريوس » قائد الامبراطور البيزنطي « جستنيان » فاستولى عليها دون كبير عناء . بيد أن الفرصة لم تطل بالصقليين ، فسرعان ما وجدوا أنفسهم يدفعون الضرائب الفادحة . وخضعت صقلية لأنظمة فرضها عليها « جستنيان » جرّت عليها ألوان التعاسة والشقاء ، ورزحت الجزيرة تحت عبء الاضطهاد الديني . لقد استمر العهد البيزنطي في صقلية زهاء ثلاثة قرون ، كان خلالها المسلمون يوجهون ضرباتهم الشديدة إلى الأسطول البيزنطي في صقلية في البحر المتوسط ، الذي كان يهدد أمن البلاد الإسلامية بشن الهجمات البحرية على المدن الساحلية في الأمبراطورية الإسلامية ، وعرقلة نشاط التجار المسلمين .

ويعود اهتمام المسلمين بصقلية إلى فجر التاريخ الإسلامي ، إذ كانت أول جملة عسكرية على الجزيرة خلال خلافة عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، أي بعد نحو عشرين عاماً من وفاة النبي محمد ، صلى الله عليه وسلم ، إذ قام معاوية بن أبي سفيان ، والي الشام آنذاك ، بإرسال حملة بحرية إليها . وهذه الحملة كانت امتداداً للحروب والمعارك التي قامت في الشرق ضد الأمبراطورية البيزنطية . وبعد ذلك تكررت المحاولات الإسلامية لغزو صقلية ، ولم تتكلل تلك المحاولات بالنجاح إلاّ في عام ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) على يد « أسد بن الفرات » قاضي القيروان ، بأمر من زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ، وهو يومئذ الوالي على القيروان من قبل أمير المؤمنين المأمون ابن هارون الرشيد . لم يطق الأغالبة سيطرة

٣

١ – الزخارف والنقوش الاسلامية تزين هذا الإناء الجميل .

٢ – قنطرة « أمير البحر » في بالرمو بنيت عام ١١١٣ م ، ويبدو فيها التصميم الهندسي العربي واضحاً .

٣ – زخارف ونقوش اسلامية بديعة على أحد أعمدة كاتدرائية « مون ريل » البالغ عددها ٤٣٢ عموداً من الرخام المصقول .

البيزنطيين على الطرق البحرية ، لذلك كانوا يتحينون الفرص للانقضاض على الجزيرة ، وعندما نما إلى علمهم الخلافات الداخلية الحادة في الجزيرة ، عندها قرر الأغالبة بأن الفرصة مواتية للقيام بهجوم واسع عليها ، وقد شجع على ذلك لجوء رجل إسمه « فيمي – Euphemius » إلى بني الأغلب في القيروان مستجيراً وكان قد ثار على « قسطنطين » صاحب صقلية ، لأن فيمي أحب « هوموينزا » الجميلة ، فاغتصبها منه صاحب صقلية ، كما تشير إلى ذلك كثير من الروايات التاريخية . ومهما يكن من أمر « فيمي » فإن الأغالبة لم يعوزهم سبب كهذا ، ولكنهم رأوا أن الوقت قد حان للحد من النفوذ البحري للدولة البيزنطية . واختير « أسد بن الفرات » قاضي القيروان ، الذي لم ينتض سيفاً في حياته ، ليقود الحملة ، فجمع جيشه في رباط سوسة وخطب فيهم خطبته المشهورة التي تعتبر من عيون الأدب العربي ، ثم اتجه نحو صقلية بمائة سفينة حربية ، ودخلها من الجهة التي دخلها من قبله الفنيقيون . واستطاع في وقت قصير أن يستولي على عدة حصون من بينها « مازر » ، ثم لم يلبث أن اتجه نحو « سرقوسه » ، وحاصرها حصاراً شديداً ، إلاّ أن المنية عاجلته أثر وباء تفشّى في المسلمين وهلك من جرائه كثيرون فيهم أسد نفسه . وواصل المسلمون فتح الجزيرة رغم الصعوبات حتى استطاعوا عام ٢١٦ هـ فتح مدينة « بالرمو » ، وبفتحها انهارت الحصون الأخرى ، وتم الاستيلاء على الجزيرة كلها . وقد اتخذ المسلمون من « بلرم » قاعدة لهم لجودة مينائها وخصوبة المنطقة حولها . ولم تلبث « بلرم » أو « بلرمة » أو « المدينة » كما أطلق عليها المسلمون الفاتحون ، أن غدت من المراكز العلمية المرموقة بعد هجرة العلماء والفقهاء والصناع إليها . وأخذ المسلمون بإنشاء المساجد في العاصمة ، حتى بلغت ٣٠٠

هذا المبنى القديم في « بالرمو» عاصمة صقلية كان مسجداً إبان الفترة الاسلامية في تاريخ الجزيـرة الخضراء .

مسجد ونيف . أضف إلى ذلك القصور ، والأسواق والقنوات ، والحمامات ، التي أسهب في وصفها مؤرخو العصور الوسطى .

لقد كانت صقلية إبان الفتح الإسلامي لها مقسمة إلى ثلاث ولايات لا تزال تحتفظ بأسمائها القديمة حتى يومنا هذا . أما الأولى فهي « فال دى مازارا » التي تضم الطرف الغربي من الجزيرة وقاعدتها بالرمو ، والثانية « فال دي نوتو » وهي المنطقة الوسطى بما فيها سرقوسة ، والثالثة « فال دي مون » التي تشتمل على مدن « كاتانيا » و « طورمينا » و « مسينا » . والكلمة « فال » كما يدل لفظها محرفة عن الكلمة العربية « ولاية » .

ان تاريخ صقلية إبان الحكم الإسلامي الذي امتد إلى ما يربو على القرنين ، عكس عليها التغيرات السياسية التي وقعت في الشمال الأفريقي والشرق . فقد تولى الفاطميون الحكم بعد الأغالبة ثم انتقل زمام الأمور في صقلية إلى « الكلبيين » . بيد أن الأعمال البارزة التي تحققت في الجزيرة لم تكن سياسية ، فقد أصبحت صقلية تحت الحكم الإسلامي أهراء للعالم ، كما كانت إبان الحكم الروماني . فبينما اهتم البيزنطيون والرومان قبلهم بزراعة القمح فقط ، أدخل العرب المسلمون محاصيل زراعية جديدة إلى الجزيرة كالقطن والحمضيات ، والنخيل والقنب ، وقصب السكر ، والتوت ، والبردي ، والبطيخ ، والسماق ، والزهور ، وذلك باتباع أساليب ري جديدة ، والقضاء على الإقطاع ، وتوزيع الأراضي ، الأمر الذي أنهى عهد الركود الاقتصادي والاجتماعي وبدأ عصر الازدهار الشامل في صقلية ، فكانت « بلرمة » وضواحيها عامرة بالبساتين والمتنزهات والفوارات والطواحين على وادي عباس . وقد واكب التطور الزراعي في صقلية ظهور عدد من الصناعات الوثيقة الصلة بالزراعة كصناعة النسيج ، والسكر ، والحبال والحصر ، والحرير ، والورق الذي دخل أوروبا عن طريق صقلية ، أضف إلى ذلك صناعة السفن التي قامت على أشجار الغابات كالبلوط والجوز والقسطل . وقد اكتسب الحرير الصقلي شهرة واسعة ، حتى أن الحكام كانوا يحرصون على أن تكون حللهم من الحرير الصقلي . وقد استمرت صناعة الحرير في الازدهار في عهد الحكم النورماني للجزيرة . هذا ولا تزال العباءة الحريرية ذات الطراز الصقلي للملك النورماندي « روجر الثاني » محفوظة في المتحف الوطني في « فيينا » ، وهي تعكس جودة الحرير الصقلي واتقان صنعه . كما طور العرب في صقلية أساليب التعدين ، فاستخرجوا الكبريت ، والفضة ، والرصاص ، والزئبق ، والنفتا ، والزاج ، والكحل ، والشب ، والملح الصخري .

هذه النهضة الزراعية والصناعية واكبتها نهضة عمرانية نشطة في أرجاء الجزيرة وخاصة في العاصمة « بلرم » التي أصبحت تضاهي القسطنطينية والقاهرة في ذلك العصر . وقد انعكست أبعاد هذه النهضة على المباني والمساجد ، والشوارع ، والحدائق ، والفوارات ، والبساتين ، والطواحين ، والمتنزهات ، والميادين العامة ، والأروقة المقنطرة المسقوفة ، التي تغنى بها الشعراء والأدباء والرحالة المسلمون . فهذا ابن جبير ، الذي زارها بعد أن استولى النورمان على الجزيرة ، يطنب في سرد محاسن مدينة « بلرم » ، ومزاياها ، فيقول : « هي بهذه الجزائر أم الحضارة والجامعة بين الحسنيين : غضارة ونضارة ، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ، ومراد عيش يانع أخضر ، عتيقة أنيقة ، مشرقة مونقة ، تتطلع بمرأى فتان ، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان ، فسيحة السكك والشوارع ، تروق الأبصار بحسن

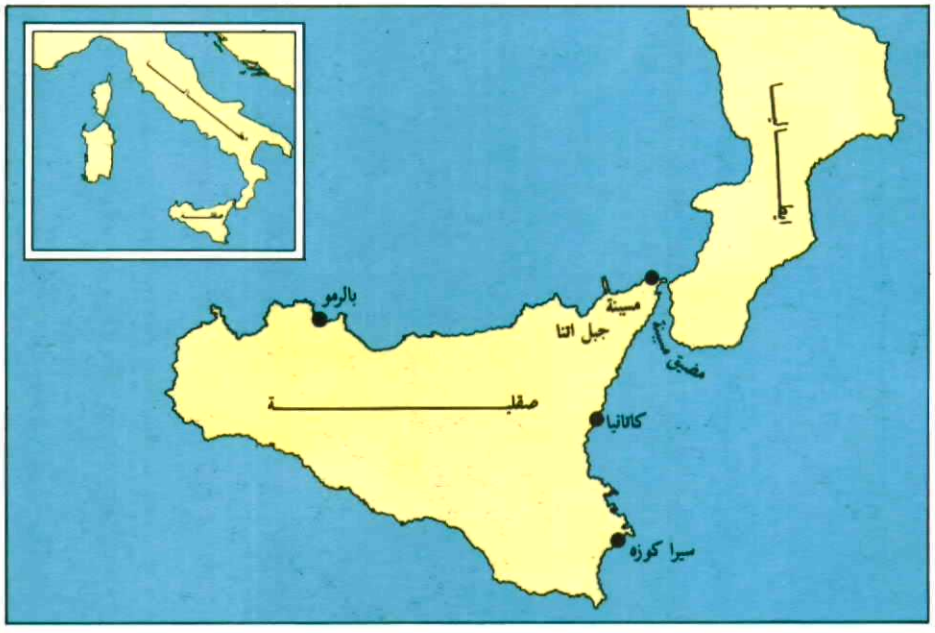

منظرها البارع ، عجيبة الشأن ، قرطبية البنيان ، مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذّان ، يشقها نهر معين ، ويطرد في جنباتها أربع عيون » .

أما النورمان الذين ينتمون إلى « الفايكنج » ، أي رجال الشمال ، فقد اجتاحوا معظم أوروبا ، وكانوا مبعث الرعب والهلع فيها خلال القرن الحادي عشر . ونظراً لجدب بلادهم وبردها القارس اتجهوا جنوباً حتى أطلوا على الجزيرة الخضراء ، فهاجموا « مسينا » عام ١٠٦١ م بقيادة ملكهم « روجر » واستطاعوا الاستيلاء عليها بعد قتال مرير ، ثم أخذوا يتقدمون في أنحاء الجزيرة ، ولم تتم لهم السيطرة عليها إلاّ بعد ثلاثين عاماً ، بسبب الخلافات التي دبت بين أمراء المسلمين فيها . والمعروف عن النورمان شغفهم بالبناء ، وخاصة القلاع والحصون والقصور ، وكان لهم طراز معماري خاص في بناء الكاتدرائيات عرف بالفن الرومانسكي ، أي الطراز الروماني المقلد . ويمكن مشاهدة ملامح هذا الطراز اليوم في واحد من أفخم المباني النورماندية القائمة في انجلترا ، وهو مبنى « كاتدرائية درهام » . فلما استتب للنورمان الأمر في صقلية ، راحوا يشيدون الكنائس

١

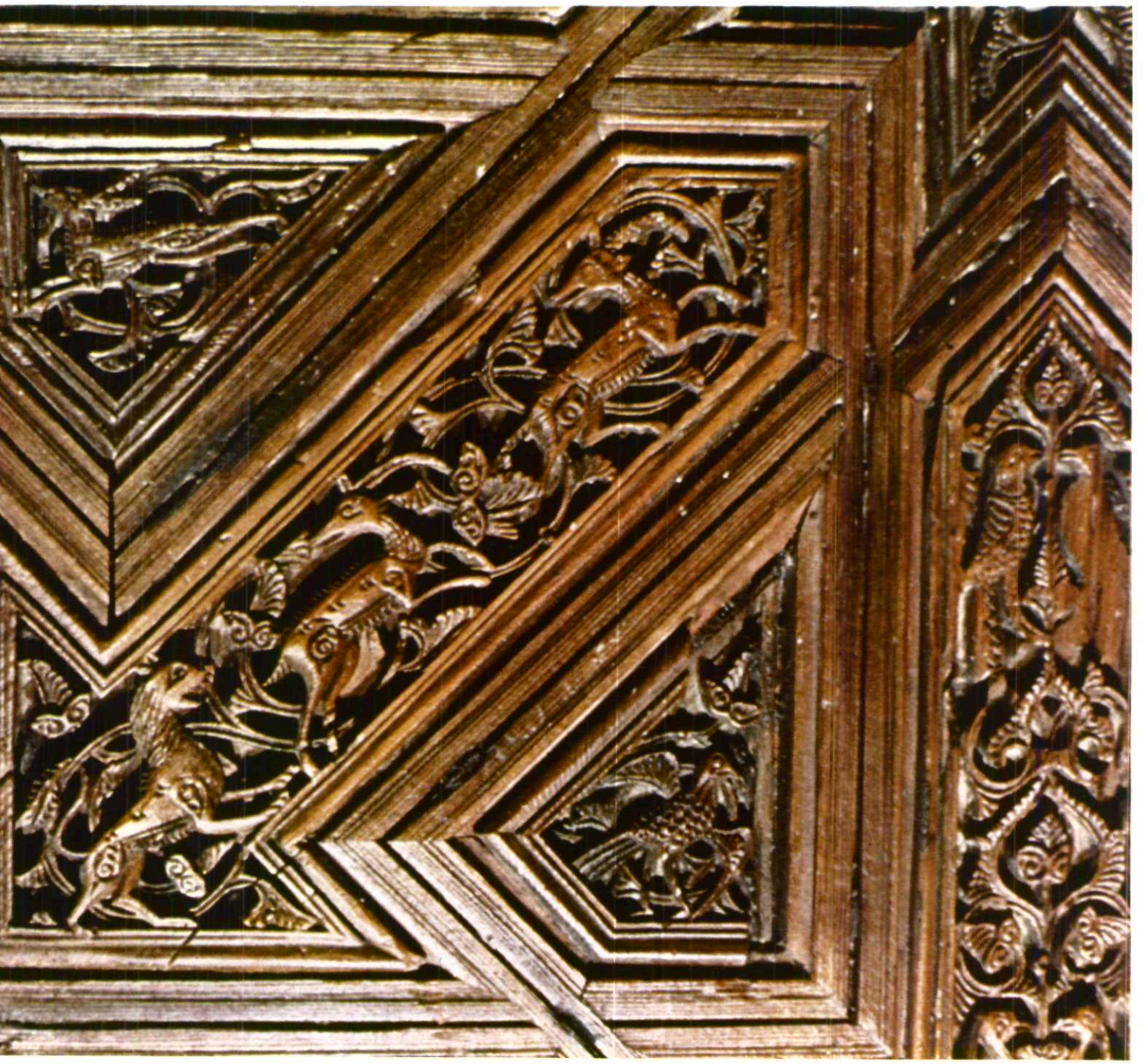

١ – أحد السقوف الخشبية في قصر « بلازو ريل » ويتجلى فيه دقة الحفر وجمال النقوش والزخارف ، التي قام بها الحرفيون العرب في القرن الثاني عشر الميلادي .

٢ – العربات الصقلية التي تجوب شوارع «بالرمو» تزدان بلوحات تعكس جانباً من تاريخ الجزيرة .

٣ – ترمز هذه النخلة لماضي صقلية العربي .

٤ – تؤلف شواطىء جزيرة صقلية منتجعاً هادئاً للاستجمام .

٢

٣

٤

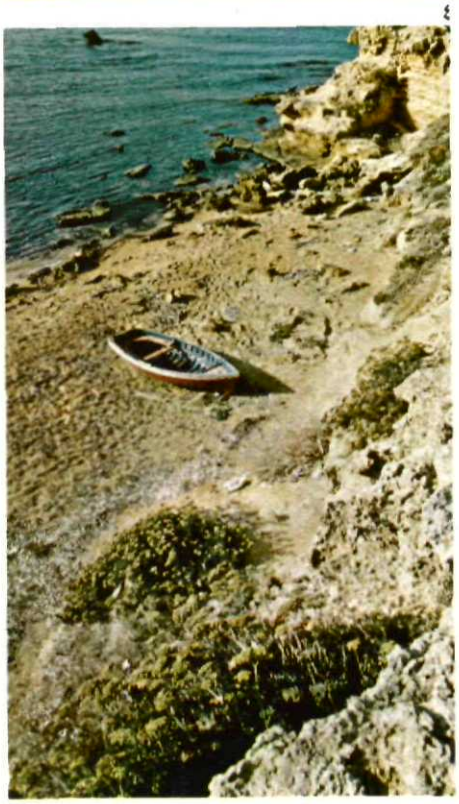

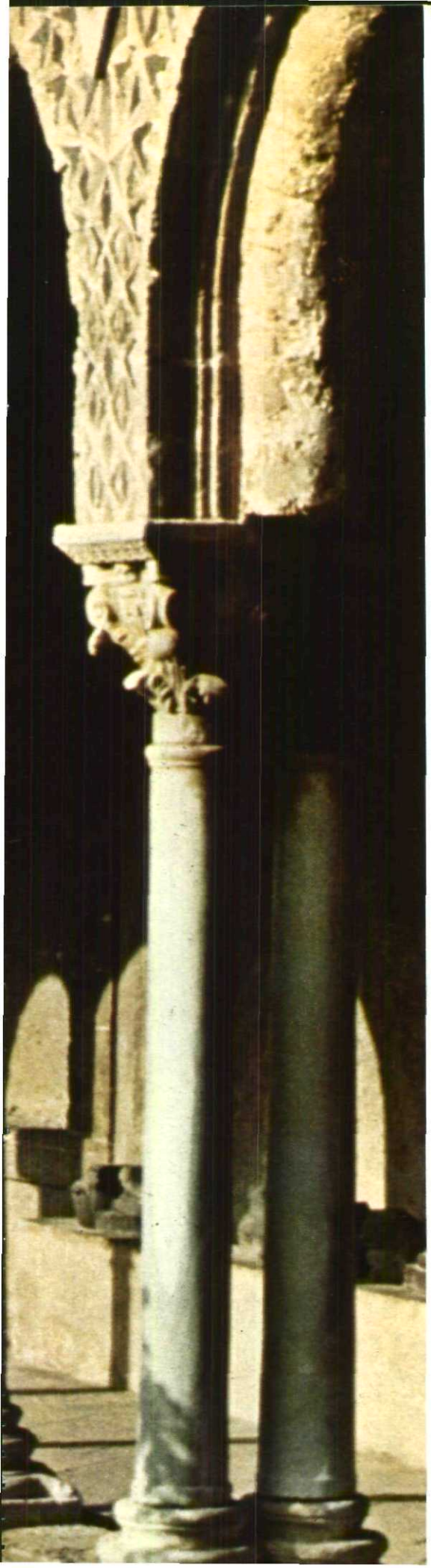

٢

والقصور متأثرين بفن العمارة الإسلامية إلى حد بعيد . فلم يغيروا كثيراً من أنماط البناء في مدن صقلية بل حافظوا على طابعها الإسلامي . ليس ذلك فحسب . بل أن ملوك النورمان اتخذوا العادات والتقاليد الإسلامية ، فكان الملك « روجر الثاني » يتزيّا بزي المسلمين ، حتى أن حلته التي يرجع صنعها إلى عام ١١٣٣ م طرزت في خزانة الملك في « بالرمو » . ويتضح من زخارفها العربية الجميلة أنها من صنع المسلمين . كما أن نساء النورمان في «بالرمو » كن يرتدين زي المسلمات المطرز بالخيوط الذهبية . وقد غلب الطابع الإسلامي في فن العمارة على كثير من الكنائس والأديرة والصروح في صقلية ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك كاتدرائية « مونريال » وكنيسة « يوحنا » وكاتدرائية « كفالو » .

وجدير بالذكر أن ملوك النورمان سمحوا للمسلمين واليونانيين والإيطاليين بأن يتكلموا لغاتهم الأصلية وأن يمارسوا شعائرهم الدينية وأن يحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم ، كما شجعوا العلماء والأدباء مما جعل فترة حكمهم للجزيرة امتداداً للازدهار الذي عاشته إبان الحكم الإسلامي . والزائر لـ « بالرمو » اليوم يستطيع أن يقف على تلك الفترة الإسلامية المشرقة في تاريخ صقلية . فالأماكن لا تزال تحتفظ بأسمائها العربية كالخالصة ، والحارة الجديدة ، وقصر القبة ، والفوارة ، وقصر العزيزة ، ووادي القنطرة . ناهيك عن أسواقها الشرقية حتى ليخال المرء نفسه في أسواق دمشق والقاهرة وبغداد .

تلك هي صقلية الجزيرة الخضراء التي تحتل في تاريخ المسلمين صفحة مشرقة . وها هو شاعرها « ابن حمديس » يرثي هذه الجزيرة التي قضى فيها زهرة شبابه وأجمل أيامه ، فيقول :

ذكرت صقلية والأسى
يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للصبا قد خلت
وكان بنو اللهو عمارها
فان كنت أخرجت من جنة
فاني أحدث أخبارها

سليمان نصر الله / هيئة التحرير

١

١ – بوابة « بورتا نوفا » في بالرمو زينها النورمان بهذه المنحوتات التي تمثل وجوهاً عربية .

٢ – كل من يشاهد كاتدرائية « مونربل » التي بنيت عام ١١٧٢ م في بالرمو ، يستطيع أن يقف على تأثير العمارة الاسلامية فيها .

تصوير : سكارفيوتي